النحو والبلاغة
مقاربة في الاتصال والانفصال

رشيد بلحبيب

تقديم :

– التداخل من سمات الثقافة العربية :

لم يعد هناك أدنى خلاف بين الدارسين الذين يعانون البحث في رحاب العربية والإسلام أن سلف هذه الأمة كان لهم تصور كلي للحياة الفكرية وخاصة في حقلي اللغة والدين ، فقد كان من إشعاعات القرآن الكريم ، توسع المدارك وتفجر العلوم المرتبطة به أولاً ، والهادفة إلى خدمته قصد استكشاف معانيه التشريعية ثانياً ، وكانت العلوم الإسلامية مرتبطة أوثق ارتباط بعلوم اللسان ، وكان التواصل قائماً بين دراسة الشعر والتوحيد والنحو والتفسير وغير ذلك مما تداخل بعضه في بعض ومدّ بعضه بعضاً في تكامل مثمر انعكس على كل فروع المعرفة الإسلامية بالثراء والخصوبة وجعل مجال البحث فسيحاً ومتشابكاً وصعباً .

فقد كانت مجالس ابن عباس جامعة للغة والأدب والتفسير والفقه والنحو ، وسؤالاته مع نافه بن الأزرق معروفة[1]، كما أصبحت العلوم اللغوية مقدمات ضرورية للمفسر، وامتزجت المادة الأصولية بالمادة اللغوية امتزاجاً ملحوظاً ، وأصبحت كتب الأصول مصادر في معاني الحروف وأصناف الدلالة والاستثناء حتى ألف القوافي الأصولي كتابه " الاستغناء في أحكام الاستثناء "[2].

لقد كانت علوم النحو واللغة والمنطق والأصول والمعـــاني ... تمثل لحمة عدد هائل من العلوم لا يُستغنى عن واحد منها إلا انعكـس ذلك سلباً على الفهم الســـليم لمضامينها. ولم يكـــن اللغويـــون في القرون الأولى - خاصة منفصلين عن النحاة ، بل كانوا يمـــتزجون في معظم الأحوال حتى لا نكاد نرى فرقاً بين هاتين الطائفتين ، ولذلـــك كانت كتب الطبقات والتراجم تجمع بين النحويين واللغويين في صعيد واحد كطبقات النحويين واللغويين للزبيدي ، وطبقات النحويين لابن قاضي شهبة وإنباه الرواة للقفطي وبغية الرعاة للسيوطي ...

وكانت نتيجة التعاون بين اللغويين والنحويين في ظل منـــاخ فكري معين ، الاحتفال بعدد من المقولات كالجنس والعدد والملكيـــة والتعيين ... بالإضافة إلى اشتراكهم في تلك النظريات الكليـــة الـــتي تتلعق بمكونات الأجزاء في الجملة وترتيب هذه الأجـــزاء وإعـــراب كل منها وبيان وظائفها[٣].

وقد حاول الجرجاني ترتيب العلوم اللغوية وإقضاء بعضـها إلى بعض حيث قال: " فالرتبة الدنيا تتعلق بالواضع ، والثانية بـــالتصريفي والثالثة بالنحوي والرابعة بصاحب علم المعاني والخامسة بصاحب علم البيان والسادسة بصاحب علم البديع، ويجب على صاحب كل علـــم منها أن لا يتسلّم الكلام ممن تقدمه إلا بعد كمال صنعته "[٤].

فإذا عُني علم المعاني بإقامـــة الصرح وعُني البيـــان بتقـــديم اللبنات ومواد البناء ، فإن علم البديع يُعنى بطلاء المبنى وزخرفته فـهو علم طرق التحسين الشكلي[٥].

لقد كانت العلوم متداخلة يظاهر بعضها بعضاً ، ويفيد بعضُها

البعض ، ولم يكد ينفصل النحو عن اللغة ولا المعاني عن البيان إلا أخيرا حيث وضعت الحدود لتمييز كل علم من الآخر وحصره في منطقة تحرم على غيره من العلوم أن ينفذ إليها .

فأصبح بعض علماء العربية ينظرون إلى هذه الفروع كما لو كانت منفصلة بعضها عن بعض . يقول كمال بشر : " إننا لا ننكر إدراكهم لنوع من الارتباط بين هذه المستويات وهو كونها تخدم غرضا رئيسا واحدا ، هو الحفاظ على اللغة وصيانة القرآن الكريم ، ولكن الارتباط الذي نعنيه هنا أن علوم اللغة ومسائلها العامة لا تعدو أن تكون جوانب لشيء واحد أو حلقات في سلسلة واحدة وهي بهذا المعنى تستلزم أمرين :

أولهما : أنه لا يجوز الفصل بين هذه الفروع فصلا ينبيء عن استقلال أي واحد منها والاكتفاء به في معالجة أية قضية لغوية .

وهذا الكلام يقودنا إلى :

الأمر الثاني : وهو ضرورة اعتماد كل فرع على الآخر وحتمية الالتجاء إلى نتائجه وخلاصة بحوثه للاستفادة منها[٦] .

- بين علمي النحو والبلاغة :

مما لاشك فيه أن النحو العربي قد استقل بالتسمية وتفرد بالمباحث المتميزة قبل البلاغة التي كانت عبارة عن نظرات متناثرة في مصادر النحو ، وقد أتيح للعلماء من بعد أن يصوغوا تلك النظرات العابرة قواعد بلاغية ذات صبغة علمية .

فالنحاة هم أصحاب الفضل الأول في نشأة البلاغة ، والتماس البدايات الأولى للدرس البلاغي يجب أن يتم من خلال كتب النحو أولاً ، لأن البلاغيين لم يبدأوا التفكير في موضوعهم من نقطة الصفر ، وإنما بنوا صرح البلاغة على أساس جهود من تقدمهم من النحاة واللغويين ، فلا عجب أن تنم الفروع عن الأصول وتقف البلاغة غير بعيد من موقف النحو واللغة(٧).

وقد نص العلماء على أن تمام آلات البلاغة التوسع في معرفة العربية ووجوه الاستعمال لها والعلم بفاخر الألفاظ وساقطها(٨). كما أدركوا أن معرفة علم البيان مفتقرة إلى النحو ، فصار علم النحو أصلاً يرجع إليه في معرفة الألفاظ والمعاني(٩).

ولم يكتفوا بمثل هذه الاعترافات بل استغل البلاغيون حديث النحاة في وجوب المطابقة بين الضمائر وأقاموا فوقه حديثهم في الالتفات ، كما استغلوا معطيات الاستثناء فشققوا مباحث القصر وأخذوا مباحث الفصل ومرجعية الضمائر فجعلوها ضوابط للفصاحة، وهكذا " كانت البلاغة خيرة متسامية بالنحو "(١٠).

ومن هنا كان للنحاة أثرهم وخطرهم في تاريخ البلاغة ، والمكتبة البلاغية في مسيس الحاجة إلى الوقوف على هذا الأثر .

إن مسلمة الالتقاء بين علمي النحو والبلاغة واسعة تبدأ بأعلام البلاغة النحويين البلاغيين ، فحين ننظر في ترجمة عبدالقاهر الجرجاني أبي البلاغة العربية مثلاً نجد : عبدالقاهر بن عبدالرحمن الجرجاني النحوي ... أخذ النحو على ابن أخت الفارسي(١١).

وله فوق دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة ، العوامل المائة في النحو والمقتصد في شرح الإيضاح والجمل في النحو وكتب في الصرف .

وعبدالقاهر النحوي البلاغي هو الذي وجد في أماكن كثيرة أن البلاغة القرآنية لن تتضح اتضاحاً كاملاً إلا إذا أقيمت أسس للدراسة تبدأ من النحو في خارج العمل الأدبي ثم تنتهي إلى النحو داخله[١٢].

ولعل هذا ما دفع تمام حسان إلى التطلع إلى معسكر البلاغيين لما اكتمل في يديه منهج النحاة ، إذ وجد البلاغيين أقرب الناس رحماً وأوثقهم صلة بالنحاة ... ومن ثم اضطر إلى التقديم للبحث بالتفريق بين الصناعات والمعارف على نحو ما يفرق بين الضبط وعدمه يقول: " وعندما استقام لي هذا المعيار ، وجدتُ في ضوئه أن النحو صناعة بلاشك ، وأن فقه اللغة معرفة بلاشك ، وأن البلاغة تقف بإحدى رجليها في حقل الصناعات وبرجلها الأخرى في حقل المعارف ، وتبين لي أن اللغويين والبلاغيين على حد سواء ربما انتفعوا بأصول النحاة في عرض الفرعيين على نحو ما انتفع النحاة بأصول الفقهاء "[١٣].

أما تجريد الثوابت فيبدو أن البلاغيين اعتمدوا إلى حد كبير على المتوارث من قواعد التوجيه النحوية وخاصة ما دار منها حول المعنى من الخبر والإنشاء والذكر والحذف والتقديم والتأخير والوصل والفصل والتعريف والتنكير والعلاقة والقرينة والوجه إلخ .

وهذه الثوابت كافية لتدعيم ما ذهبنا إليه من أن النظرية البلاغية مقامة على جملة من التصورات اللغوية العامة ؛ وبذلك يصبح التداخل الواضح بين اللغة والبلاغة أمراً معقولاً إن لم نقل مقصوداً

ويبقى للبلاغيين ثوابتهم الخاصة بهم كالحقيقة والمجاز والتشبيه والكناية والتورية والاستعارة ... بالشكل الذي ينتفي معه التطابق الكلي بين العلمين ، وهو ما لم يرتضه عدد من العلماء كابن الأثير مثلاً الذي يقول : " إن فن الفصاحة والبلاغة غير فن النحو والإعراب "[١٤].

وقد كان العلماء يقفون ـ كلما دعت الحاجة إلى ذلك ـ عند بعض المباحث المشتركة ليبينوا حظ النحوي وحظ البلاغي ، يقول ابن أبي الأصبع : " الاستثناء كالاستدراك كل منهما على قسمين : لغوي وصناعي ، فاللغوي قد فرغ النحاة من تقريره، والصناعي هو المتعلق بعلم البيان ، والفرق بينهما أن الصناعي لابد أن يتضمن ضرباً من المحاسن زائداً على ما يدل عليه اللغوي.. "[١٥].

ويورد السبكي في عروس الأفراح قول الخطيب في حديثه عن التعريف وأنه قد يكون بالإضمار ثم يقول إنه: " لا يريد ان يخير بأن التعريف يكون بالإضمار وغيره ، فإن ذلك حظ النحوي بل يريد ذكر أسباب التعريفات "[١٦] ويصرخ كذلك في نهاية حديثه عن أغراض العطف على المسند إليه بأن " لحروف العطف استعمالات أخر مذكورة في علم النحو تركناها لأنا نذكر في هذا العلم ما يتعلق بمعاني الحروف لا ما يتعلق بحروف المعاني ، فإن أحكام الحروف واستعمالاتها من موضوع علم النحو "[١٧].

ويقول ابن الأثير في معرض حديثه عن الحرف : " ولست أعني بإيراده ههنا ما يذكره النحويون من أن الحروف العاطفة تتبع المعطوف عليه في الإعراب ولا أن الحروف الجارة تجر ما تدخل عليه بل أمراً وراء ذلك ، وإن كان المرجع فيه إلى الأصل النحوي "[١٨].

ويقول السبكي في معرض حديثه عن ضمير الفصل إنه : " يفيد أيضاً الدلالة على أن ما بعده خبر لا صفة على خدش في ذلك محله علم النحو ، لأن هذه الفائدة من حظ النحوي لا من حظ البياني "[١٩].

كما ميز البلاغيون بين الجواز البلاغي والجواز النحوي ، يقول السبكي : " واعلم أن الخبر والإنشاء المتمحضين لا يعطف أحدهما على الآخر ، فيجب الفصل بلاغة ، وأما لغة فاختلفوا فيه ، فالجمهور على أنه لا يجوز ... وجوزه الصفار وطائفة ... وحاصله أن أهل الفن متفقون على منعه ، وظاهر كلام النحاة جوازه ، ولا خلاف بين الفريقين لأنه عند من جوزه يجوز لغة ولا يجوز بلاغة "[٢٠].

وقال الزمخشري في تفسير قوله تعالى : ﴿ قُلْ لو أنتم تملكُون خَزائِنَ رَحْمة ربّي ... ﴾ [الإسراء / ١٠٠] : " لو " حقها أن تدخل على الأفعال دون الأسماء ... فلابد من فعل بعدها في : (لو أنتم تملكون) وتقديره (لو تملكون تملكون) فأضمر " تملك" إضماراً على شريطة التفسير، وأُبْدِلَ من الضمير المتصل الذي هو الواو وضمير منفصل وهو " أنتم "... وهذا هو الوجه الذي يقتضيه علم الإعراب ، أما ما يقتضيه علم البيان فهو أن (أنتم تملكون) فيه دلالة على الاختصاص وأن الناس هم المختصون بالشح المتبالغ ..."[٢١].

وكما هو واضح من حديث الزمخشري تقف البلاغة عند الصورة الفعلية للكلام ، ولا ترفض ما فيه من نقص أو انحراف ؛ لكن يحاول النحو أن يقدم صورة مثالية كاملة للغة، فإذا لم تسعفه العبارة

الظاهرة ـ الفعلية ـ في الكلام ... تطوع بتقدير هذه الصورة ، ونجد مثلا لذلك في حديث الزمخشري السابق عن دخول " لو " على الأفعال دون الأسماء ، وكيف يضطر النحاة ، محافظة على هذه القاعدة ـ إلى تقدير فعل يتلوها يفسره الفعل المذكور .

فوظيفة النحو هي استخراج مبادىء اللغة ونظمها استنادا إلى الاستعمال المشترك أو ما يظن أنه استعمال مشترك ، وغايته القصوى حماية اللغة من الفساد والحرص على أن تواصل أداء وظيفتها الأصلية " الإبلاغ " ووسيلته في ذلك ضبط المعايير التي نفصل بها بين الخطإ والصواب ... أما البلاغة فوظيفتها وصف الطرق الخاصة في استعمال اللغة وتصنيف الأساليب بحسب تمكنها في التعبير عن الغرض تعبيرا يتجاوز الإبلاغ إلى التأثير في المتكلم أو إقناعه بما نقول ... وغايتها مد المستعمل بما تعتبره أنجع طريقة في بلوغ المقاصد[٢٢].

ورغم التماس البلاغة للطرق التي تجعل العمل الأدبي عملا فرديا باستغلال الفعل اللغوي ؛ فإنه " لا يتسنى تقديم هذا العمل والإلمام بخصائصه وتبيين مميزاته إلا بالرجوع إلى تلك المبادىء التي أقامها النحاة "[٢٣].

فما أورده البلاغيون تبريرا لتقديم المسند إليه مع أن تقديمه هو الأصل بل هو الأمر الحتم إذا كانت الجملة الاسمية لم يتقدم فيها الخبر على المبتدإ لأسباب نحوية ، لكنها البلاغة وجمالياتها ولكنهم البلاغيون وفنيتهم ، ولا أبرئهم من أنهم كانوا نحويين أكثر منهم بلاغيين في بعض تبريراتهم ، ومن ذلك قولهم في تقديم المسند إليه : " وأما الحالة التي تقتضي تقديمه على المسند فهي متى كان ذكره أهم

، ثم إن كونه أهم يقع باعتبارات مختلفة إما لأنه الأصل ولا مقتضى للعدول عنه[٢٤]. مثل كون المسند متضمناً لما له صدر الكلام وهذا الاعتبار نحوي بحت .

وكقولهم : " وإما لأنه ضمير الشأن والقصة ، نحو : هو زيد منطلق ، فهذا الاعتبار نحوي أكثر منه بلاغي إن لم يكن نحوياً صرفاً، لأنه تطبيق للقاعدة النحوية القائلة " إن ضمير الشأن ملتزم التقديم "[٢٥].

إذن " فمعرفة علم البيان مفتقرة إلى علم النحو " وعمل البلاغي مرتكز أساساً على معطيات النحو وأصوله ، وحتى تكتسب البلاغة شرعية الوجود وتتمتع باستقلاليته انطلقت من النحو واستحضرت عملاً غيّبه النحوي ولم يدخله في نسقه الوصفي للغة ؛ ذلك العمل هو تعليل الأحكام النحوية ، واستغلال الانحرافات عن الأصل استغلالاً فنياً .

هذا بالنسبة للبلاغة " بصفة إجمالية " إلا أن التداخل والتقارب يزداد ويقوى عند اقترابنا من فرع من فروع البلاغة وهو علم المعاني ، الذي سماه الجرجاني " المعاني النحوية ".

بين علمي النحو والمعاني

" علم المعاني " من المصطلحات التي أطلقها البلاغيون على مباحث بلاغية تتعلق بالجملة ، وما يكون فيها من حذف أو ذكر أو تعريف أو تنكير أو تقديم أو قصر أو فصل أو إيجاز أو إطناب ،

ولا يعرف أحد استعمله وسمّى به قسماً من موضوعات البلاغة قبل السكاكي (ت ٦٢٦هـ) وقد كان القدماء يستعملون مصطلح " المعاني " في دراستهم القرآنية والشعرية فيقولون " معاني القرآن أو معاني الشعر ؛ ويتخذون من ذلك أسماء لكتبهم ، وليس في هذه المصطلحات ما يتصل بالبلاغة أو بأحد علومها "[٢٦].

وعلم المعاني من الناحية الاصطلاحية هو تتبع خواص تراكيب الكلام في الإفادة ، وما يتصل بها من الاستحسان وغيره ليحترز بالوقوف عليها من الخطإ في تطبيق الكلام على ما يقتضي الحال ذكره[٢٧].

قال السكاكي: "وأعني بتراكيب الكلام التراكيب الصادرة عمن له فضل تمييز ومعرفة ، وهي تراكيب البلغاء لا الصادرة عن سواهم لتزولها في صناعة البلاغة منزلة أصوات حيوانات تصدر عن محالها بحسب ما اتفق .

وأعني بخاصية التركيب ما يسبق منه إلى الفهم عند سماع ذلك التركيب جارياً مجرى اللازم له لكونه صادراً عن البليغ ، لا لنفس ذلك التركيب من حيث هو هو .

وأعني بالفهم : فهم ذي الفطرة السليمة ..."[٢٨].

وهو علم مستخرج من تتبع خواص تراكيب البلغاء بالطبع ، كما أن النحو علم مستخرج من الأعراب المتكلمين كلاماً صحيحاً بالطبع ، ولذلك صار العلماء الذين تناولت موضوعات علومهم بحث الطبيعة تلامذة الطبع "[٢٩].

وسمي " علم المعاني" لأن ما يدرك به معان مختلفة زائدة على أصل المراد[٣٠].

- وموضوع علم المعاني: التراكيب الخبرية والطلبية من حيث تطبيق خواصها على مقتضى الحال .

- ومسائله : القواعد التي يتعرف منها أن أي مقام يقتضي أي خواص من الخواص .

- ومبادئه : المسائل النحوية واللغوية .

- ودلائله : استقراء كلام البلغاء .

- والغرض منه : تطبيق الكلام على مقتضى الحال[٣١].

أما مباحثه فتنحصر في ثمانية أبواب هي :

١ ـ أحوال الإسناد الخبري .

٢ ـ أحوال المسند إليه .

٣ ـ أحوال المسند .

٤ ـ أحوال متعلقات الفعل .

٥ ـ القصر .

٦ ـ الإنشاء .

٧ ـ الفصل والوصل .

٨ ـ الإيجاز والإطناب والمساواة[٣٢].

علاقة المعاني بالنحو :

لقد تنبه علي النجدي ناصف إلى العلاقة الوثيقة بين مباحث علم المعاني والنحو ، وأن هناك رحماً ماسة وصلة شديدة بين منهج سيبويه في كتابه وبين منهج علماء البلاغة المتأخرين في علم المعاني يقول : " فالفكرة التي كان سيبويه يرعاها ويصدر عنها في توسيع مباحث النحو وترتيب أبوابه كما تمثلت لي بالنظر والمراجعة في الكتاب ، مدارها العامل أولاً وأخيراً ، نظر في الجملة حين تكلم عن المسند والمسند إليه فإذا هي فعلية واسمية ... ثم تكلم عن الفعل المحذوف والفعل المذكور والمتعلقات ... ثم صار إلى الجملة الاسمية فتكلم عن الابتداء ونواسخه ... ويبدو أن النسق الذي أخذ به سيبويه هو الذي ألهم علماء المعاني فكرة انحصار مباحثه في أبوابه الثمانية المعروفة ، وليس يسع المرء وهو يقرأ كلامهم في ذلك إلا أن يتبيّن اقتباسهم منه واقتداءهم بهداه "[٣٣].

وهكذا نرى أحد التعريفات ينسب إلى علم المعاني أنه قواعد، ونجد عبدالقاهر يكاد يسمي هذا العلم " معاني النحو " ويرجع مفاهيمه إلى أصول النحو وإلى أبواب النحو ، أي إلى ثوابت النحو وتجريداته .

فإذا كان النحو علماً يحترز به من الخطإ ، فن علم المعاني يحترز به عن التعقيد[٣٤] فيتراءى من البحث فيه عن المعاني الوضعية للألفاظ المفردة والهيئات التركيبية المشاركة بينه وبين علم اللغة والنحو[٣٥].

إن المعاني أقرب شيء إلى النحو من حيث إنها تتناول التركيب والسياق ، ثم إن المعاني والنحو يتقاسمان النظر في التركيب على نحو ما سبق ، فالنحو يبدأ بالأبواب المفردة وينتهي بالجملة ، والمعاني يبدأ بالجملة ليصل منها إلى السياق المتصل ، ولقد صرح بهذه العلاقة بين النحو والمعاني أبو البلاغة العربية عبدالقاهر الجرجاني ، فأنشأ فكرة النظم ونسبه إلى المعاني وجعل المعاني المنظومة هي معاني النحو[٣٦].

إن علمي النحو والمعاني لا يمكن الفصل بين أحدهما والآخر إلا مع التضحية بالمعنى على مستوى العلمين جميعا ، وقد كان سيبويه فيما يبدو واعيا بهذا الأمر ، فقد تناول تأليف العبارة وتركيب الكلمات وما فيها من صحة وحسن أو ما يطرأ عليها من فساد وقبح.

يقول عبدالقادر حسين : " وإنما يكفي أن نشير هنا إلى أن سيبويه قد أدرك معنى نظم الكلام ، وأن النحو عنده لم يكن مجرد إعراب لأواخر الكلمات وما فيها من رفع ونصب وخفض وجزم ؛ بل كان النحو عنده أعز من ذلك وأرفع قيمة مما صار إليه في عهود الانحدار التي فصل فيها النحو عن البلاغة فتمزقت أوصال العلمين وكان هذا الفصل جناية عليهما معا "[٣٧].

ولعل هذا المسلك الذي سار عليه سيبويه هو الذي حاول عبدالقاهر بعثه مما جعل إبراهيم مصطفى يقول : " إن عبدالقاهر الجرجاني رسم في كتابه دلائل الإعجاز طريقا جديدا للبحث النحوي تجاوز أواخر الكلم وعلامات الإعراب ؛ وبين أن للكلام نظما وأن رعاية هذا النظم واتباع قوانينه هي السبيل إلى الإبانة والإفهام "[٣٨].

وسواء أكان عبدالقاهر مسبوقا في هذا الأمر من قبل القاضي عبدالجبار أم لا ، فإن عبدالقاهر كان يقصد على النحو البلاغي أو البلاغة النحوية ، وبذلك يكون قد أخرج النحو من نطاق شكليته وجفافه وأخضعه لفكرة النظم وأخضع فكرة النظم له ، وأصبح النظم الذي يرتبط بالنحو أو النحو الذي يعود إليه النظم ، مباحث في الأسرار البلاغية والنكات الفنية التي تدف في جاذبيتها وتحلق في تصويرها حتى تصل إلى أرفع مراقي البيان وذلك هو الإعجاز الذي أذاب فيه الرجل العالم عصارة أيامه ولياليه[٣٩] .

فمنهج عبدالقاهر - إذن - هو منهج النحو الذي لا يقف عند حدود الحكم بالصحة والفساد بل يمتد إلى البحث في العلاقات التي تقيمها اللغة بين الكلمات ، مستغلا في ذلك معطيات النحو وأبعاد المعاني إلى أبعد الحدود ، حتى أصبح الأساس عنده هو النحو ، على أن يشمل النحو علم المعاني فأصبحت مباحث التقديم والتأخير والحذف والذكر والوصل والفصل ... من مباحث العلمين جميعا .

ولكن هذا لا يعني أن بين العلمين تطابقا كليا وإلا لما أمكن الحديث عنهما منفصلين . فالنحو والمعاني يدرسان في حقيقة الأمر جملا ونصوصا ولكنهما يتناولان ذلك بطريقتين مختلفتين وتقنيات مختلفة ، " لأن المعتبر عند صاحب المعاني الاستعمال دون الوضع والاشتهار دون الصحة "[٤٠] .

وقد عبر عن هذا الاختلاف ابن الأثير حين قال : " وهو - البلاغي - والنحوي يشتركان في أن النحو ينظر في دلالة الألفاظ على المعاني من جهة الوضع اللغوي ، وتلك دلالة عامة ، وصاحب

علم البيان ينظر في فضيلة تلك الدلالة ، وهي دلالة خاصة ، والمراد بها أن تكون على هيئة مخصوصة من الحسن[٤١].

ودافع عن استقلالية علم المعاني بهاء الدين السبكي الذي يرد سؤال السائل : أي فائدة لعلم المعاني ، فإن المفردات والمركبات علت بالعلوم الثلاثة : اللغة والنحو والصرف ، علم المعاني غالبة من علم النحو ؟

يقول : " كلا إن غاية النحوي أن يتزل المفردات على ما وضعت له ويركبها عليها ، ووراء ذلك مقاصد لا تتعلق بالوضع مما يتفاوت به أغراض المتكلم على أوجه لا تتناهى ، وتلك الأسرار لا تعلم إلا بعلم المعاني ، والنحوي - وإن ذكرها - فهو على وجه إجمالي يتصرف فيه البياني تصرفا خاصا لا يتصل إليه النحوي ، وهذا كما أن معظم أصول الفقه من علم اللغة والنحو والحديث وإن كان مستقلا بنفسه "[٤٢].

وإذا كان صاحب المعاني يشارك النحوي في بحث التراكيب ؛ " إلا أن النحوي يبحث عنها من جهة هيئاتها التركيبية صحة وفسادا ودلالة تلك الهيئات على معانيها الوضعية على وجه السداد ، وصاحب المعاني يبحث عنها من جهة حسن النظم المعبر عنه بالفصاحة في التركيب وقبحه ، ومرجع تلك الفصاحة إلى الخلو عن التعقيد فيما يبحث عنه في علم النحو من جهة الصحة والفساد، ويبحث عنه في علم المعاني من جهة الحسن والقبح، وهذا معنى كون علم المعاني تمام علم النحو ، ومن هم أنه مجرد دعوى فقد وهم "[٤٣].

وكأني بابن كمال باشا يحاول ختم هذا الخلاف وحسمه

بقوله: "وإذا تحقق ما قررناه فقد ظهر عندك أن التراكيب الخالية عن الفصاحة ساقطة من نظر صاحب علم المعاني دون النحوي ، وكذا التراكيب التي لا مزية في نظمها ساقطة عن نظر الأول دون الثاني وكذا التراكيب التي لا حظ لها من الخواص الخطابية "[٤٤].

أما الذي يفرق بين النحو وعلم المعاني تفريقا حقيقيا فهو محاولة علم المعاني أن يمهد بصره إلى الدراسات الجمالية الذوقية والنفسية ، طامحا إلى مطلب آخر غير الذي فكر فيه النحاة ، مطلب يتخطى الانشغال بمجرد المعاني الوظيفية إلى مغامرات في حقل المعاني الذوقية ... ولو وقف الأمر بأصحاب علم المعاني عند حدود المعاني الوظيفية لما كان هناك مبرر لفصل علم المعاني عن علم النحو ، لأن العلمين عندئذ يصبحان ولا فارق بينهما[٤٥].

فاللغة شيء مستقل عن الذات المذكرة عند النحاة ، أما النظم فهو عند الجرجاني شيء متصل بالذات المفكرة ، ومن هذه الجهة يكون فكر الجرجاني مكملا لفكر النحاة ، وهو مكمل لأنه لا ينقض أساس الفكر اللغوي العربي بل يعتمد عليه في بحث إشكالية النظم ، وهو مخالف له لأنه يربط النظم بالذات المفكرة[٤٦].

أما على مستوى التحليل والتعامل مع النصوص فيميز أحمد العلوي بين التحليل النحوي والتحليل النظمي في إظهار التمييز بين علمي النحو والمعاني ، يقول : " وإنما هناك علاقة بين مستويين من التحليل : التحليل النحوي الذي ينظر إلى الإنتاج اللغوي مستقلا عن المتكلمين ... والتحليل النظمي (علم المعاني) الذي يدرس الإنتاج اللغوي من جهة كونه في جانب فيه راجعا إلى قدرات المتكلمين

الخاصة واختياراتهم ، فهو بحث في العلم اللغوي الخاص بالمتكلم "[٤٧].

ولعلنا نلاحظ أن سياقات التقديم والتأخير دارت في الغالب حول الرتب المحفوظة عند النحاة وإدراك البلاغيين لهذه الحقيقة النحوية أتاح لهم أن يضيفوا إلى مباحثهم بعدا جماليا في تركيب الكلام من خلال العدول عن الترتيب المألوف إلى ترتيب آخر يتميز بقدرة على إبراز الدلالة بتقديم جزء على آخر أو تأخيره عنه .

ومن هنا كان التقديم والتأخير مبحثا نحويا بلاغيا يتكفل الجانب النحوي بتحديد الأوجه الجائزة الممنوعة ، في حين يتكفل الجانب البلاغي بالبحث في دلالة تلك الأوجه التركيبية وتعليل صور التقديم تعليلا جماليا .

فالنحو والمعاني ليسا متطابقين وليسا متعارضين بل هما متكاملان بحيث لا يستغني أحدهما عن الآخر ، فالنحو بغير المعاني جفاف قاحل والمعاني بغير النحو أحلام طافية ينأى بها الوهم عن رصانة المطابقة العرفية وينحاز بها إلى نزوات الذوق الفني[٤٨].

من أجل ذلك كان من الأليق علميا أن تعالج موضوعات الذكر والحذف والوصل والفصل والقصر والتقديم والتأخير والتعرف والتنكير والعلاقة والقرنية ... في التراث النحوي والبلاغي باعتبارها مظهرا من مظاهر الالتقاء والتلاحم بين العلمين ، وباعتبار أن دراسة الظاهرة عند طائفة دون أخرى من شأنه أن يخل بالتكامل الذي لاحظناه .

الهوامش

١) الكامل ، المبرد ٢٢٣/٣ .

٢) نشر بتحقيق طه محسن ، مطبعة الإرشاد ، بغداد : ١٩٨٢ ، انظر : ص : ٧٠ – ٧٢ منه .

٣) ينظر في بيان التداخل بين العلوم : دلالات التراكيب ، أبو موسى ص : ١١ ونظرية اللغة ، راضي ص : ٢٠٣ وأثر النحاة في البحث البلاغي ، عند عبدالقادر حسين ص : ٢٣ .

٤) الإشارات والتنبيهات ، الجرجاني ، ص : ٣ – ٤ .

٥) الأصول ، تمام حسان ص : ٣٩٠ .

٦) التفكير اللغوي ، كمال بشر ، ص : ١٤٩ .

٧) الأصول ، تمام حسان ، ص : ٣٤٨ .

٨) الصناعتين ، العسكري ص : ٢٧ .

٩) جوهر الكنز ، ابن الأثير ص : ٣٠ .

١٠) النحو والشعر ، مصطفى ناصف ص : ٣٥ .

١١) بغية الوعاة ١٠٦/٢ ، وإنباه الرواة ١٨٨/٢ .١٢

١٢) النحو والشعر ، مصطفى ناصف ص : ٣٦ .

١٣) الأصول ، تمام حسان ص : ٩ – ١٠ .

١٤) المثل السائر ٣٨٣/١ .

١٥) بديع القرآن ، ابن أبي الأصبع ، ص : ١٢١ .

١٦) عروس الأفراح ٢٨٨/١ .

١٧) المصدر السابق ٣٨٨/١ .

١٨) المثل السائر ٣٨٨/٢ .

١٩) عروض الأفراح ٣٨٧/١ .

٢٠) عروس الأفراح ٢٦/٣ .

٢١) الكشاف ٦٩٦/٢ .

٢٢) التفكر البلاغي عند العرب ، حمادي صمود ص : ٤٧ .

٢٣) نظرية اللغة ، راضي ، ص : ١٩١ – ١٩٢ والطبيعة والتمثال ، احمد العلوي ، ص : ٢٣٢ .

٢٤) البلاغة الاصطلاحية ، قلقيلة ص : ٢٠٩ – ٢١٠ ، وانظر : شروح التلخيص ٣٩٠/١ ، ومفتاح العلوم ص : ١٩٤ .

٢٥) مفتاح العلوم ص : ١٩٥ .

٢٦) المعاني في ضوء أساليب القرآن ، عبدالفتاح لاشين ص : ٨٩ ، أساليب بلاغية ، أحمد مطلوب ص : ٦٧ ، (وانظر مثلا : معاني القرآن للفراء ، معاني القرآن للأخفش .. معاني الشعر للاشنداني ...).

٢٧) مفتاح العلوم ، السكاكي ص : ١٦١ ، وانظر ص : ١٧٤ – ١٧٥ ، المطول ص : ٣٣ .

٢٨) مفتاح العلوم ص : ١٦١ .

٢٩) الإشارات والتنبيهات ، الجرجاني ص : ١٩ .

٣٠) مواهب الفتاح ١٥٠/١ .

٣١) مفتاح السعادة ، طاش كبرى زادة ١٨٦/١ .

٣٢) شروح التلخيص (مواهب الفتاح – مختصر التفتازاني – عروس الأفراح – حاشية الدسوقي ١٦٢/١ – ١٦٣) .

٣٣) سيبويه إمام النحاة – علي النجدي ناصف ص : ١٧٨ – ١٨٠ .

٣٤) المطول – التفتازاني ص ٣٣ .

٣٥) رسالة ابن كمال باشا ص: ٢٠١ (مجلة الدارة) .

٣٦) الأصول – تمام حسان ص : ٣٨٨ .

٣٧) أثر النحاة في البحث البلاغي ص : ١١٣ .

٣٨) حياء النحو ص : ١٦ .

٣٩) فكرة النظم ، فتحي عامر ص : ٨١ ، وانظر اللغة العربية ومبناها ، تمام حسان ص : ٣٣٦ ، والطبيعة والتمثال ، أحمد العلوي ص : ٢٣١ . دراسات في خصائص ابن جني ، ياقوت ص : ١٩٩ . فلسفة البلاغة ، رجاء عيد ص : ٢٣ .

٤٠) رسالة ابن كمال باشا ص : ١٩٨ .

٤١) المثل السائر ٣٩/١ – ٤٠ ، الطراز ١٧/١ .

٤٢) عروس الأفراح ٥١/١ – ٥٢ .

٤٣) أساليب بلاغية ، مطلوب ص : ٨٥ ، البلاغة القرآنية ، أبو موسى ص : ٢٠٨ .

٤٤) رسالة ابن كمال باشا ص : ٢٠٠ ، (مجلة الدارة) .

٤٥) الأصول ، تمام حسان ص ٣٤٨ – ٣٤٩ ، البلاغة العربية في ثوبها الجديد ، بكري شيخ أمين ص : ٥١ – ٥٢ ، نظرية اللغة ، راضي ص : ٢٣١ ، النحو والشعر ، مصطفى ناصف ص : ٣٣ (مجلة فصول) .

٤٦) الطبيعة والتمثال ، العلوي ص : ٢٤١ .

٤٧) المصدر السابق ص : ٢٣١ .

٤٨) الأصول ، تمام حسان ص : ٣٤٤ .